

أسرار الحياة اليهودية

إلى قيام دولة إسرائيل فى مايو ١٩٤٨ كان العرب هم مشكلة اليهود الأولى وعقدتهم النفسية الكبرى ؛ ذلك لأنهم - لسوء الحظ - أبناء عم : اليهود أولاد إسحاق ، والعرب أولاد إسماعيل .

واليهود يزعمون أن إسحاق هو الابن الأفضل لإبراهيم عليه السلام ؛ لأنه ابن سارة الحرة ، أما إسماعيل فهو ابن الجارية المصرية هاجر . وبعد ميلاد إسماعيل طلق إبراهيم جاريته هاجر بتحريض من سارة ، ومضى بها وابنها إسماعيل إلى الصحراء، وخلفهما هناك ؛ ليعيشا فى شظف وجهد وإملاق !

وكان فى تقدير العزيز الحكيم أن يعيش إسماعيل مع أمه فى الصحراء حياة أمن و سلام ، وأن يعود إبراهيم إلى أرض الحجاز ؛ لكى يرفع قواعد البيت مع ابنه إسماعيل ؛ ليكون مثابة للناس وأمناً ، وأن يكون من نسل إبراهيم العرب ، وأن

يكرم له العرب بمحمد ﷺ والإسلام ، وأن يعم الإسلام الدنيا ،
ويكرم الله العرب بهذا الدين ..

ورفض اليهود الإيمان بمحمد ، كما رفضوا من قبل الإيمان
بعيسى !

وامتلأت قلوب اليهود حقداً على العرب أبناء إسماعيل ؛ لما
أكرمهم الله به من الإسلام والعزة والقوة .

وطوال العصور الوسطى - وبرغم إكرام العرب لليهود - كان
أمل اليهود الأكبر خراب ديار العرب أجمعين !

وعندما دار الزمان وأنشبت اليهود مخالبتهم في فلسطين ظنوا
أن فرصتهم قد حانت لإدراك ثأرهم من العرب .

ومن ذلك الحين أصبح اليهود مشكلة العرب ؛ لأن اليهود
استقروا في قلب البلاد العربية - فلسطين - في فترة من فترات
الضعف والتفرق والخضوع للمستعمر الأجنبي الذي كان عوناً
لليهود عليهم !

وعندما استقل العرب وقامت دولهم ، واشتد ساعدهم ، كان
اليهود قد ابتلعوا معظم فلسطين ، وهددوا كل بلد عربي ، بل كل

مواطن عربي فى داره ، وأظهروا أنفسهم مع ذلك أنهم مظلومون مهددون ضعفاء فى حاجة إلى عطف الناس ! وانخدع الناس بذلك ، وشاركوا اليهود فى البكاء عند حائط المبكى ، وأغدقوا عليهم المال والسلاح .

وبالدموع والمال والسلاح أحس اليهود أنهم لا يُغلبون ! وفى ثلاث حروب متوالية ظنوا أن حلم حكماء بنى إسرائيل فى سيادة الدنيا على وشك أن يتحول إلى حقيقة !

ولكن حرب أكتوبر ١٩٧٣ قلبت الميزان !

انهار سد ياجوج وماجوج الذى أقاموه حول أنفسهم ؛ وتحطمت أسطورة جيشهم الذى لا يغلب ، وأسرع قائدهم العبقري يستنجد الدنيا وإلا ضاعت الجنة التى أنشأها اليهود على أرض فلسطين !

وبدأ العرب قصتهم مع النصر ، ودخلت المعركة بين العرب واليهود فى طور جديد .

طور العربي الذى يتكلم من موقع القوة ، ويتكلم فيصغى له الناس ، ثم يمضى فى بسالة الواثق من حقه إلى قلب قلعة

العدو الإسرائيلي ، ويقول بصوت يسمعه العالم كله : إن كنتم تريدون السلام فهذا هو السلام ! هاتوا أرضنا ، واعترفوا بحق هذا الشعب الفلسطيني الذي شردتموه ، وعيشوا بعد ذلك في سلام !

ورفضوا ؛ لأنهم لا يريدون أن يعيشوا في سلام ! وهل في الدنيا إنسان لا يريد أن يعيش في سلام ؟
أجل : اليهود في فلسطين !
لماذا ؟

لكي نجيب عن هذا السؤال ينبغي أن نفهم اليهود .
لكي نحل القضية الفلسطينية وإلى أين تمضى قضيتنا مع إسرائيل ينبغي أن نفهم اليهود ؟
وليس ذلك بالمطلب الهين ؛ فإن الدنيا كلها لا تفهم اليهود !
والكثيرون جداً من اليهود لا يفهمون اليهود !
وستكون نقطة البداية في محاولتنا فهم اليهود كتاباً فريداً في بابهم ، ألفه من نحو عشر سنوات الكاتب الفرنسي المعروف Roger Peyrifitte « روجيه بيريفيت » وعنوانه :
«اليهود» وقد طبع هذا الكتاب بعد ذلك مرات !

والمؤلف ليس عدواً لليهود ، بل هو أقرب إلى أن يكون صديقاً لهم ، وليس فى الغرب كله كاتب له سوق وقرءاء يجروء على أن يخاصم اليهود ! إنهم يستطيعون تحطيمه أياً كان مركزه ؛ لأنهم أقوياء جداً فى مجالات النشر والإعلام ! وقبل نصر أكتوبر ١٩٧٣ وقبل مبادرة الرئيس السادات فى ١٩ و ٢٠ من نوفمبر ١٩٧٧ لم تكن أى صحيفة أو جريدة فى الغرب تجروء على أن تذكر العرب بخير ، وكلمة « فلسطين » كانت محرمة فى قاموس النشر فى الغرب ؛ لأن هذا اللفظ يؤلم اليهود !

لهذا كان نشر بيريفيت لكتابه عن اليهود سنة ١٩٦٨ جرأة أكبر ؛ لأنه يكشف كثيراً من الحقائق التى كان اليهود يحرصون أشد الحرص على ألا يعرفها أحد عنهم ، وفى هذه الحقائق الكثير من مثالب اليهود أو نقائصهم ، ولكن بيريفيت يعرف كيف يقول ما يراه حقاً فى صورة لابد أن يحترمها الآخرون ؛ لأنه أولاً عفيف اللسان ، قدير فى القول ، ثم إنه آخرأ لا يقول شيئاً إلا أيده بالدليل القاطع والوثيقة الصادقة ، فلا مناص لسامعه من الاستماع ولو كرهت النفوس ، وما أبغض الحق المؤيد بالدليل إلى المنكر الجاحد الموتور !

سيكون هذا الكتاب مدخلنا ودليلنا ، ولكنه لن يكون معتمدنا الوحيد ؛ لأنه إذا كانت لديه قصة يحكيها عن اليهود فنحن - العرب - لنا قصة أخرى لا مفر من الاستعانة بها لمن يريد أن يفهم اليهود ..

وقصتنا لا تقل صدقاً وعمقاً عن قصته ، فهي وليدة تجربة ومعاناة وآلام ووقائع سجلها التاريخ !

سنسير معه حيناً ، ونسير في طريقنا حيناً آخر ، وسنجمع الأدلة والشواهد ؛ لكي نصل بها إلى الحكمة التي هي ضالة المؤمن ..

والحكمة تقضى علينا اليوم بأن نفهم العدو الذى نواجهه ؛ فإن الكراهة والبغضاء لا تعينان على تعرف الحق ، وإن كنا معذورين إذا مال بعض إلى الكراهة والبغضاء ؛ فإن الذى لقيناه من هؤلاء القوم كثير لا تكاد تحمله النفوس !

وما رأيك فى ناس يزعمون أن الألمان النازيين قتلوا منهم ستة ملايين فيما يقولون ، ثم يريدون منا نحن العرب أن ندفع العوض ، ونتحمل الديات ، وما نحن بألمان ولا نازيين ؟ !

وما رأيك فى قوم يريدون منا أن ندفع ونكون سعداء بأن ندفع ، وأن يُعتدى علينا ونكون سعداء بالعدوان ، ونُهان فلا يكون ردنا إلا تحية وسلاماً !

إما هذا أو نحن قوم جاحدون مكابرون !

والقارئ يعرف كل هذا الكلام .

فُلنَدَعُهُ إلى حين ونمض ؛ لنبدأ الدراسة من كتاب (اليهود)

لروجيه بيريفيت .

المؤلف : دبلوماسى ، وأديب ، ومثير فتن فكرية :

روجيه بيريفيت Roger Peyrifitte من أولئك الكتاب الذين تختلف فيهم الآراء اختلافاً واسعاً ، وتتضارب حولهم العواطف ما بين مؤيدين معجبين ، ومنكرين مسرفين فى السخط ، ولكن المؤيدين والمنكرين - جميعاً - يحرصون على قراءة كل ما يكتب؛ لأن كلامه يشتمل على حقائق مثيرة ، وإشارات لاذعة ، ومفاجآت تثير العجب ، وما إلى ذلك من حوافز التشويق التى تجتذب العدو والصديق على حد السواء !

ذلك أن كتب بيريفيت تقوم دائماً على دراسات طويلة وبحوث مستقصية للموضوع الذى يكتب فيه ، وهو لا يكتب أبداً اعتماداً على افتراضات وتقديرات شخصية ، بل يبحث طويلاً جداً ، ويطيل القراءة ، ويجد طريقه دائماً إلى الوثائق وخزائن المعلومات ؛ لأنه دخل عالم الأدب والكتابة من باب عال رفيع !

فقد كان دبلوماسياً فرنسياً وصل إلى درجة السفارة ، والفرنسيون لا يرفعون من رجالهم إلى درجات السفراء إلا خيرتهم تجربة وعلماً وخبرة ، وهم يؤمنون بأن السفير يولد ولا يصنع . أى أنهم يرون أنه ليس من حق كل من وصل إلى درجة مستشار سفارة أن يخطو إلى درجة الوزير المفوض فالسفير ؛ لأن السلك الدبلوماسى عندهم يصل إلى المستشار ، أما ما يلى ذلك من المناصب فلا يعين فيه إلا الموهوب القادر على تمثيل فرنسا تمثيلاً مشرفاً ، ورعاية مصالحها ومصالح أبنائها المنبئين فى كل مكان !

ولهذا فإنك يندر أن تجد سفيراً فرنسياً ليس عالماً أو أديباً كبيراً ، أو قانونياً ضليعاً ، أو أستاذاً ، أو موسيقياً ذا قدر عظيم .

هذا كله نجد دليلاً ناطقاً عليه فى سيرة بيريفيت .

كان دبلوماسياً دهنراً من عمره ليس بالقصير ، ولكنه كان عالماً بَحائَةً فى كل يوم من أيام عمله الدبلوماسى : ما شغل منصباً فى إحدى السفارات الفرنسية فى أية ناحية إلا أقبل يجمع المعلومات عنها بصبر يعدل صبر المتخصصين ، فإذا غادر البلد كان معه حصاد لا يلبث أن ينشره فى كتاب .

ثم شبع من السلك السياسى ، فتركه وانصرف إلى التأليف ، وذاع أمره بسبب غزارة المعلومات فى كتبه ، وبسبب أسلوبه اللاذع وصراحته فى الكلام ، وإن الإنسان ليدهش وهو يقرأ كتابه الأشهر «مفاتيح القديس بطرس» (Les Clefs de Saint Pierre) كيف أتى له أن يجمع هذا الحشد الهائل من المعلومات الكبيرة والصغيرة عن الفاتيكان ؟ وكيف وجد فى نفسه الجرأة على نشرها على الناس غير هيَّاب من الكنيسة ومن لها من أنصار ؟

وكتابه المشهوران « السفارات » و « نهاية السفارات » يعدان من أطرف ما يقرأ الناس عن السلك السياسى وأصحابه ، وما فى حياتهم من جد كثير وهزل أكثر ، وأغرب ما تحس به وأنت تقرأ هذين الكتابين أنك لا تعرف أبداً : أفى جد أنت أم فى هزل ؟ وطريقة بيريفيت هى أن يختار لكتبه موضوعات هى فى

ذاتها مشكلات يختلف الناس في أمرها مثل : موضوع الكنيسة ودولتها ونظامها ، أو موضوع السلك السياسى ، أو شواذ الجنس ، أو جماعة فرسان مالطة التى وهب لها أحد البابوات جزيرة مالطة ، فظلت تحكمها حكماً سيئاً حتى قضى عليها نابليون ؟

وهو يجمع لكتبه معلومات كثيرة جداً ، ومعلومات تتردد بين الوثائق الخطيرة والأسرار الضخمة ، وبين المبازل والعبارات العابرة والحكايات الواقعية القصيرة التى تسمى «بالأنيكدوت» وخير ترجمة عربية لها هى «النكات» وهى غير الفكاهات ، ونحن نسيء فهم النكتة عندما نسميها فكاهة ، وهى فى حقيقتها الحادثة القصيرة الطريفة ذات المغزى .

ثم يصوغ ذلك كله فى قالب قصصى غير معقد أو مُتَكَلِّف ، وهذا القالب القصصى عنده أشبه بحامل الكتب أو إطار الصورة: فهناك شخوص أمامك ، ولكن وظيفتهم فى القصة هى أن يتكلموا ؛ لِيَقْصُوا عليك الكثير جداً مما يريد المؤلف أن يقوله ! ومن هنا فهو يسمى معظم كتبه روايات ، ولكنها - فى الواقع - ليست حكايات ، بل هى أبحاث ودراسات !

###